

أولريش هارمان ، جامعة فرايبورج
(ألمانيا الاتحادية)

موقف المسلمين من التراث الفرعوني
في
العصور الوسطى

في سنة ألف ومائتين وسبع وعشرين التقى الملك الكامل محمد الأيوبي عند
أهرام الجيزة بمبعوث الأنبرور « يعنى الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني » ،
وفاوض الملك الكامل الأيوبي ، حول عقد حلف بين الدولتين وإعادة القدس
للمسيحيين . وسمح الملك الكامل لممثل الإمبراطور بأن يزور آثار منف والجيزة
الفرعونية . ومن الغريب أن يكتشف مبعوث الأنبرور كتابة لاتينية على الأهرام
فنسخها بنهم وترجمها إلى العربية بمساعدة العالم المحلى أحمد بن شعبان الإيلى .

إنّ هذه الحادثة التى لم تكن معروفة من قبل ، لم تصل إلينا عن طريق مصدر
لاتينى معاصر كما يتوقع البعض ، بل عن طريق مصنف عربى . وهو كتاب
عنوانه كتاب أنوار علوى الأجرام فى الكشف عن أسرار الأهرام تأليف نسابه
الأشراف بمصر ، المحذث الصعيدى جمال الدين الإدريسى الذى ولد بالقرب
من دندره بصعيد مصر سنة ألف ومائة وثلاث وسبعين وتوفى بالقاهرة سنة
ألف ومائتين وإحدى وخمسين * .

ولو أخذنا بعين الاعتبار أنّ المجال فُتح هنا واسعاً لآراء غير مسلم ، من غير
« أهل القبلة » كما يقول الإدريسى ، فالمجال قد يكون أوسع ، بالأحرى ، فيما
يهم موقف المسلمين المصريين المعاصرين للتراث الفرعونى . وهذا صحيح فى
هذا الكتاب وفى كل الكتب الجغرافية والتاريخية الأخرى المكتوبة فى العصور
الوسطى باللغات العربية والفارسية والعثمانية فى موضوع آثار مصر القديمة
وتاريخ بناتها .

لقد أيقن المسلمون فى العصور الوسطى أن الصلة التاريخية التى تربط مصر
الفرعونية بمصر الإسلامية قد قطعت . ولذلك سيطر على صورة مصر القديمة
عند المسلمين التابعة من قصص الأنبياء والقرآن الكريم شخصية فرعون
موسى ، الذى يمثل جوهر الظلم والطغيان فى الإسلام . وكانت آثار التقاليد
الفرعونية وقت فتح العرب لمصر قد أُمحّت تماماً وضاع معها ، وإلى غير

* تحقيق أولريش هارمان ، بيروت ١٩٨٩ (سلسلة الدروس والنصوص يصدرها المعهد الألماني
للأبحاث الشرقية ببيروت ، رقم ٣٨)

رجعة ، معنى الرموز القديمة . فقد تبنت الآثار الفرعونية معاني جديدة إسلامية مثل سجن يوسف أو بيت زليخه أو أهراء يوسف ، وأصبحت مصر الفرعونية في الوقت نفسه بلاد العجائب و« بابل التحرة » كما يقول العالم العراقي ابن النديم الوراق في كتابه المشهور « الفهرست » في القرن العاشر الميلادي . فالنقوش الهيروغليفية أصبحت تعرف في المصادر العربية « بالقلم البرباوى » يعنى كتابة المعابد اشتقاقاً من كلمة Perpe بربا القبطية — أو « قلم الطير » — لكثرة الأشكال التى تتخذ صور الطيور — أو « القلم الكاهنى » بمعنى الكتابة الهيراطيقية .

كما أثارت ألغاز التماثيل الفرعونية وإتقان صناعتها القوة الخيلة في ذهن الإنسان في العصور الوسطى قبل عهد شامبليون ، سواء أكان من المسلمين وغير المسلمين ، مصريين وغير مصريين . وأدى عدم فهم التراث الفرعونى بمعناه الحقيقى إلى الشعور بالخوف والحياء تجاه بقايا مصر القديمة الضخمة . إذ ساد لدى الناس أن روحانيات مطيعة تحرس كنوز السحرة القدامى المحفوظة في الأهرام والمصطبات . وعدنا نسمع في العهد الفاطمى ، على سبيل المثال ، عن رضوان الفراش الذى يدخل إلى قلب الهرم الكبير ويموت ، وتفسر هذه المأساة كما يقول المؤلف « جزاء من ينهتك حرمة الملوك في منازلهم » .

وكانت مصر القديمة (في رأى العلماء في العصور الوسطى الإسلامية) موطن صنائع شاذة ، مثل الطلسمات والسحر وعلمى الكاف والميم وعلم الكاف هو علم الكيمياء وعلم الميم هو علم المطالب يعنى الدفائن والكنوز المخفية في أرض مصر هذا وورد في كتاب البلدان للجاحظ أن أسماء عشرين من العجائب الثلاثين توجد في مصر وأولها تتمثل في أهرام مصر .

ويذكر مؤلفا الإدريسي (ص ١٢/١٣) أن السعى لمعاينة العجائب ومشاهدة الغرائب شىء طبيعى . فالإمام عبد الله بن مبارك المروزى الذى توفى سنة سبع مائة وسبع وتسعين (مثلاً « كان حيث ما سمع بأعجوبة سعى إليها لكى يقف بالمشاهدة عليها » ، والأهرام أبرز عجائب الدنيا . هنا لك حكاية

الحاج المغربي الذى يرجع إلى وطنه بدون أن زار أهرام مصر ، ويلومه شيخه على ذلك لوماً غليظاً ويعاتبه قائلاً : « وهل كان بينك وبين الإخبار عنها (يعنى الأهرام) والشهادة عندى بما شاهدته منها ، سوى ركضة راكب أو دفعة قارب » . ويعود الحاج الغفلان على الفور إلى مصر (ص ٥/١٥ — ٦) . ليستدرك غلظه . فيمكن بمعنى عام أن نقول هنا بأن طلب العجائب يبدو واجباً على المسلم المتدين . وتتبنى الآثار الفرعونية أهمية إسلامية أولاً كعجيبة بارزة ، وثانياً — وسوف نرجع إلى تلك الملاحظة — كعبرة مجسمة قوة الله خلال كل الأجيال . أين بانى الأهرام ؟ بادوا كلهم « والله ، وما بقى غير ما ترى من آثارهم وتقراً من أخبارهم ، فجعل بقايا القوم أحجار ورسوم تخبرنا عنهم وآثار ، ولا بد وأيم الله أن تنطمس الآثار وتدرس الأحجار » (ص ٨/١٥٢ — ١٠) .

ولا ينحصر اهتمام هؤلاء المؤلفين الجغرافى في الظواهر الأسطورية والعجيبة المرتبطة بالتراث المعمارى الفرعونى . الإدريسي على الأقل يعطينا تفاصيل هندسية قيمة عن الأهرام ، عن مقاييسها الدقيقة ، عن سطوحها وارتفاعها ، عن كيفية أعالها ، عن نوع الكتابات المختلفة المنقوشة عليها ، كما عاينه هو نفسه أو كما سمع من المحدثين الثقات . ولقد ذكرت الكتابات اللاتينية التى اكتشفها ممثل الإمبراطور الألماني توماس دى آكرا هنالك .

ولا نسه عن الشريف محمد بن الحلبى ، أحد رواة الإدريسي الموثوق بهم . فهو يذكر كتابة بالخط الكوفى على أحد الأهرام ونصه هو « يوحد فلان ... » ويعزو الإدريسي ذلك إلى واحد من الصحابة الواردين إلى مصر في طريقهم إلى الصعيد والمغرب الأقصى . وسأرجع إلى ذلك الموضوع فيما يتلو . ومحمد بن الحلبى (وهو مولع بالآثار) جمع كتابات فرعونية كثيرة على الأهرام ووصل في بحثه لهذه الوثائق مثلاً إلى قمة هرم أبو صير .

وربما توصف آثار الجزيرة من الداخل أيضاً ، يعنى حيثما أمكن دخولها . ونضطلع بأنباء المحاولات المختلفة التى قام بها الحكام المسلمون في العصور

الوسطى لاقتحام الأهرام . وأول من حاول ذلك كان الخليفة العباسي المأمون ، أول خليفة الذى زار مصر . ولقد دخلت حكاية دخوله الفاشل كتاب ألف ليلة وليلة كما هو المعروف . وجمع الإدريسي أيضا معلومات عن البيت المكعب أو البيت المربع فى الهرم الكبير ، وعن المسارب والحيطان والنواويس والخفافيش بداخل الهرم . ويذكر الإدريسي الحفلة التى نظمها سلطانه الملك الكامل بمناسبة زيارة أخيه صاحب جزيرة ابن عمر إلى مصر (ص ١/٤٥ - ٥) : « فضربت بهما - بعنى أهرام الجزيرة - الخيام ، وتيقظت لما زينت به تلك الأرض من محاسنها العيون النيام ، وانثال نحوها للتنزه خواص الناس مشاة وركبان ، فطاروا إليهما زرافات ووحدانا . وتسمن منهم ذروة الهرم الأكبر أربعة عشر إنسان ، فخص كل واحد منهم بحباء من الذهب وأولى إحسان ، وتقدم الأمر الكاملى بأن يتخذ للبيت المكعب المتوصل إليه من جانبى الزلافة مراق ، حتى لا يعسر الصعود إليه على راق » .

وبالإضافة إلى الأهرام وأبى الهول بجوارها ، فلنلقى أيضا فى الكتب المتخصصة بهذا الموضوع معلومات مفيدة عن آثار فرعونية أخرى ، وإن كان ليس بنفس التوسع . فلنذكر على سبيل المثال حنية اللازورد والبيت الأخضر بمنف والأهرام الأخرى فى كل من السقارة والدهشور والميدوم وواحة الداخلة .

ولا يتقص ذكر الآثار القديمة بصعيد مصر ، خصوصا براى - يعنى هياكل - دندرة وأخميم وأيضا الأقصر البحرية كما يسمى الإدريسي هياكل الكرنك . وسنسمع عن زيارة الإدريسي بصحبة والده فى الأقصر وعن غضبهما ومرارتهما بالنسبة للوقاحة والفظاظة التى نفذها - باسم الإسلام وكراهية الإسلام ضد تصوير الإنسان والحيوانات - هؤلاء الجهلة بمعاولهم ومباردهم وقطاعاتهم الذين يشوهون ويجربون النقوش الفرعونية على حيطان الآثار . ومن أهم آثار مصر تمثالا ممنون بمنطقة الأقصر المدعوة بالعربية نواويس شامة وطامة . ولكننا نعثر أيضا على معلومات عن تماثيل طفيفة مثل المسلة غير المتكاملة فى محاجر أسوان .

وإن النقوش الفرعونية تثير تطلع المتأملين الخاص . وقد ذكرنا الرموز الهيروغليفية وتسمياتها المتفرقة عند المؤرخين المسلمين فى العصر الوسيط . وتذكر وتشرح بعض عناصر النقش والبناء الفرعونية ولو أحيانا بشكل اعتباطى : ومنها الشمس المنحطة الواردة على عتبات الهياكل العليا . وإن أحداً من ثقات الإدريسي يعتقد أن يستطيع استنباط تاريخ بناء الآثار الفرعونية ، أى البراى والأهرامات ، من هذه الصورة (ص ٢/١٠٥) : « بنيت - يعنى الأهرام والهياكل - بتاريخ حلول النسر الطائر برأس السرطان . ويدل على ذلك كون جميع البراى بالديار المصرية مصور على أبوابها فى العتبة الفوقانية صورة نسر ناشر جناحيه تنبينا بالإزميل على نحو ما تكتب الأمم تاريخ بناء المدن فى عتب أبوابها نقراً فى الحجر » .

ويلتقط الإدريسي هذه النقطة ليحاول أن يحسب متى حدث ذلك - يعنى بناء الأهرام والبراى - فعلا وهو يعتمد على موقع نجم النسر الطائر من باقى النجوم زمن تأليف كتابه الخاص سنة ستائة وثلاث وعشرين هجرية ، أى سنة ألف ومائتين وست وعشرين ميلادية . وأما النتيجة التى يتوصل إليها فهى عشرون ألف سنة من قبل .

ومما يكتب عنه الجغرافيون والمؤرخون المسلمون باحترام وتقدير خاصين هو مهارة المصريين القدامى فى فن العمارة والبناء . فنقرأ مثلاً : « ومن عجائبها الظاهرة لأبصار متأملها .. تضام ملتقيات أحجارها على عظم أجرامها وضخامة أجسامها بحيث لا نجد الشعرة متخللاً بين بعضها وبعض لإحكام النحت والرصف المتجاوزين فى الإحكام والإتقان حد الوصف » (ص ٥/١٤٣ - ٧) . فيتساءل المؤلف كيف كانت مثل هذه الأعمال التى تفوق القوة البشرية . « فكيف تلاقت ملتقياتها مع ثقل الاعتماد الحجرى ولم تتلحم ولم تتأثر جنباتها بالقراصات ولم تهشم ؟ وهل رفعوها إلى قلة جبل ذلك البقاع وغاية ما بناه البانون على وجه الأرض فى الارتفاع كما يرفع سائر الأثقال بالمياخيل والحبال ... أم كانت لهم فراقل مطلسمة تطير الأحجار إلى أماكنها

كما يقال ؟ » (ص ٩/١٤٣ — ١٣) . وينبغي أن يترك الإدريسي الجواب على هذا السؤال مفتوحاً .

فلنتنقل الآن إلى موضوع آخر وهو انعكاس تاريخ مصر الفرعونية في المصادر العربية المتأخرة بعد الحوادث نفسها بمئات السنوات . ثمت هنا ثلاثة تقاليد تاريخية : الأولى قطعة وجيزة من لائحة الفراعنة التي دونها الكاهن مانيتو من القرن الثاني قبل الميلاد . يذكر البيروني هذه القائمة بصورة مختصرة ومحرفة ويأخذها عنه المقرئ في كتابه الخطط المشهور ، مبتدئاً بالأسرة العشرين الفرعونية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

إلى جانب هذا النزر اليسير من مصدر فرعونى أصلى هناك الصيغتان الإسلاميتان لتاريخ مصر القديمة . وتعود الأولى منهما إلى بعض المحدثين من القرن الثاني أو الثالث الهجرى مثل ابن لهيعة وعثمان بن صالح وهى تبدأ بتاريخ مصر بعد الطوفان . وتتوافق هذه الصيغة بشكل عام مع أخبار التوراة عما حدث في أرض مصر . وإنه تسيطر على هذه الصيغة الحوادث المربوطة بإبراهيم الخليل ، والعمالة ، ويوسف ، وموسى ، وبخت نصر . إلا أن هذا النص الذى رواه لأول مرة عبد الرحمن بن عبد الحكم ، المتوفى سنة ثمانى مائة وإحدى وسبعين ميلادية ، فى كتابه فتوح مصر وأخبارها ، يشتمل على أسماء فراعنة يشك فى تاريخيتهم مثل الوليد بن دؤمغ وابنه الريان .

أما الرواية الإسلامية الثانية عن مصر الفرعونية فهى حتى أروع بكثير . والمقصود هنا كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء وال عمران المنسوب خطأ إلى المسعودى . وفى كتاب التاريخ الخيالى هذا تنسج قصص المصريين القدماء بروعة وأبهة . فيبدو للقارئ وكأنه فى خضم عالم سحرى عجيب وخلف الأبواب المسحورة يقف حراس غامضون مخوفون بالأسرار فى هيئة البشر أو الحيوان لحراسة كنوز لا تحصى ولا تثنى . وتشع المسلات الذهبية بلمعان وهاج حول البرك المقدسة . وفى أوعية معدنية وخشبية حجرية ، رائعة فى إتقان صناعتها ، تتراكم الحلى الثمينة والبخور

الفواح . وبالاختصار ، فهذا الكتاب عبارة عن تمجيد للسحر بفروعه وأنواعه المختلفة .

وإن تسمية مايكل كوك من جامعة برنستون لهذا الكتاب « بالتاريخ الهرمسي » لتسمية صائبة حقاً . فانه مصيب أيضاً باعتباره كتاب أخبار الزمان هذا مزوراً مصطنعاً نشأ حوالى سنة ألف الميلادية فى الأندلس . وهناك الكثير مما يشير إلى أن مبدع هذا الكتاب الغريب هو الوصيفى أو ابن وصيف شاه الغامض ، وهو شخصية يتعذر تحديدها تاريخياً . ويشير بعض المؤلفين إلى هذا الكتاب على شكل قطع مقتبسة فى وصفهم لتاريخ مصر الفرعونية ، ابتداءً من القرن الحادى عشر . وأذكر كتاب الاستبصار لمؤلف أندلسى مجهول وأمية بن أبى الصلت صاحب الرسالة المصرية وصاعد بن صاعد الأندلسى صاحب طبقات الأمم والنويرى وابن أبيك الدوادارى . ويبدو أن هذه الصيغة المصطنعة للتاريخ الفرعونى كانت شعبية جداً ما بين القراء والسامعين فى العصر الوسيط وأيضاً فى مصر الحديثة . وتكفى الإشارة إلى كتاب سندباد مصرى لحسين فوزى . فإنه يقدم الفراعنة الأسطوريين كما يصفهم الوصيفى فى كتابه أخبار الزمان .

ولا ننسى هنا خبيراً آخر عن تاريخ الوصيفى ، وهو خال ولدى مؤلفنا الإدريسي ، وهو الأسعد بن ممتى المشهور . كان ابن ممتى ، وهو مصنف كتاب قوانين الدواوين ، رئيس الديوان الأيوى خلال فترة طويلة . وكانت المحل والفرصة لاقتباساته من كتاب الوصيفى هى التذكرة التى دونها على عشرين ورقة بمناسبة محاولة الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين الفاشلة والمغرورة لهدم الهرم الثالث بالجيزة ، أى هرم ميكيرنوش .

وماذا عن دور التماثيل والآثار الفرعونية فى الحياة المصرية فى العصور الوسطى كما نستنبطها من المصادر المعاصرة ، كما ذكرت فى افتتاح هذه المحاضرة كان قد ضاع الفهم عن الحقائق الفرعونية فى العصر الإسلامى . وقد تضاءلت ظل الفراعنة على الأراضى المصرية ، وإن نكتشف آثار الاستمرارية فى البيئة الشعبية المصرية أحياناً .

يعلمنا مؤرخان من العصر المملوكى مثلاً ، الصفدى وابن الفرات ، أن العامة زارت أبا الهول في أوقات الحن وبحثوا عن المساعدة من هذا الصنم المتحجر . وعلى جانب ذلك لعبت البقايا الفرعونية دوراً محدداً طيلة العهد الإسلامى قبل نشوء علم المصريات في بداية القرن التاسع عشر :

أولاً : هى هدف الهدم والتخريب والتشويه .

ثانياً : هى ، كما ظن الشعب ، مستودع الكنوز والدفائن .

ثالثاً : هى ، مثل ما دورها اليوم ، محل الاحتفال والتزه والعطلة — يعنى الفنطرية — في أوقات الفراغ .

ومن الجدير بالملاحظة هو أنه منذ زمن الخليفة العباسى المأمون على الأقل شاع الاعتقاد بأن الآثار الفرعونية الضخمة والعجيبة هى مخبأ لكنوز كبيرة وغنية ، مع أن ابن خلدون (المتوفى سنة ألف وأربع مائة وست) ذكر في مقدمته الشهيرة بسخرية بأن أولئك الذين يستثمرون أموالاً في البحث والتنقيب عن هذه المطالب لا يسعهم على الأغلب أن يسترجعوا حتى ما صرفوه من المال في هذه المبادرة . لقد سبق ذكر المحاولات المتعددة لتدمير الأبنية الفرعونية . ويهنا هنا قول الملك سوريد ، باني الأهرام كما يقال في معظم المصادر العربية المعاصرة ، بأن هذه البنايات العجيبة لا يمكن هدمها في ست مائة سنة حين ما بناها ذلك الفرعون في ست سنوات فحسب ، « والهدم أيسر من البناء » . ولما اضطر الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر يوسف أن يكف عن مبادرته ضد أهرام جيزة سأل الطبيب والفيلسوف عبد اللطيف البغدادي ، وهو شاهد لهذا الهجوم الفاشل والمغرور ، مقدم الحجارين المشغولين في هذا المشروع : « لو بذل لكم السلطان ألف دينار على أن تردوا حجراً — أى من الهرم — إلى مكانه وهندامه ، أكنتم على ذلك قادرين ؟ فأقسموا بالله على عجزهم عن ذلك بأضعاف المال » (ص ٨٤١ — ١٠) . والسلطان الملك العزيز نفسه استخدم الأهرام أيضاً كمضمار الاحتفالات والمسابقات والمبارزات العسكرية . ونقرأ في كتاب أنوار علوى الأجرام للإدريسي الجمل التالية :

« خيم عليها — يعنى الأهرام — في اثني عشر ألف فارس ، من كل بطل للحرب ممارس ، وصعدها بمحضر منه رجل من الجند ولم يخلع خفيه عن رجلين وبيده قوس موتر ، ونزل سالماً ، فوصله بجائزة سنوية وخلع عليه وأحسن إليه » . ولقد كان يتسلق الأهرام ، منذ زمان القائد العباسى مؤنس المظفر المعتضدى ، تحدياً من قبل الحكام . وهناك الرياضيون الشجعان والمهرة الذين تجاسروا على تسنم ذروة الهرم الأكبر . وكان الوزير الفاطمى الميذر ، الأفضل بن بدر الجمالى يشعل نيران على قمة هرم خوفو ، فتشاهد عن بعد شائع ، وذلك فيما تسمى « بليالى الوقود » — أى ليلتى منتصف رجب وشعبان المحترمين . ونعثر على حكايات مماثلة في كل القرون التالية عبر العصرين المملوكى والعثمانى .

ويستحيل علينا أن نتحقق بالضبط من مدى الاهتمام الصادق بشؤون مصر القديمة عند المسلمين في العصر الوسيط . فإن موقف المسلمين الثقافى والعقائدى تجاه الفترة الفرعونية في تاريخ مصر والعالم متضارب :

فهناك الصورة الموجودة في القرآن الكريم عن فرعون موسى وما يمثله الفراعنة من حكم متعجرف ظالم ، وهناك أيضاً الرفض القاطع لكل المبادئ والعادات الدينية في مصر القديمة كما تعكسها النقوش والصور الفرعونية (مثل التناسخ والرجعة وإحياء الموتى في الأرض) ، وهناك ثالثاً تكره الإسلام العام لتصوير الكائنات الحية . ولكن ثمت جهة أخرى . فهناك الاحترام والرهبة أمام آثار الماضى كعبر تحذرننا من الغطرسة والتكبر والعجب وأنها تجسم فناء الإنجازات البشرية مهما بعدها . ونقرأ في كل الأدب اللاتينى في العصور الوسطى وأيضاً في مصادرنا العربية السؤال المتضمن جوابه : Ubi sunt qui ante nos in munclo fuere ، يعنى أين الذين كانوا قبلنا في الأرض . ويطرح الإدريسي هذا السؤال في كل من الباب الأول والآخر لكتابه عن الأهرام وهو يشير إلى القرآن الكريم — ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في

الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴿ (سورة غافر ٢١) .

وبين التبجيل الشعبى الوثنى للمعابد الفرعونية كالأهرام وأبى الهول من جانب ، والتعصب الأعمى الدينى ضد كل أثر من آثار الجاهلية من جانب ، كان الاهتمام بايجاد طريق وسط يسمح بالحفاظ على التركة القديمة دون أن يستفز المسلمون المؤمنون أو أن يجرح شعورهم الدينى بأى صورة كانت .

ولقد وصل الإدريسى ، وهو محدث خبير بفن الجرح والتعديل ، إلى هذا الحل الوسط . ومن المحتمل أن جهده الخاص فى هذه التسوية بين الغائتين نابع من كونه مسلماً ورعاً من جهة ، وابن وطنه ، أى منطقة الآثار الفرعونية بالصعيد ، من جهة أخرى . إنه يأسف كثيراً على ورود ذكر سد مأرب والبئر المعطلة وبعض الآثار الأخرى فى القرآن المجيد ، حين ما لم تذكر الأهرام وبرابى مصر هناك أيضاً . ويحاول الإدريسى التعبير عن ذلك الإهمال بالحجة أن القرآن الكريم قد أنزل للعرب فى المقام الأول وليس للمصريين .

وفى البحث عن حجج قاطعة اضافية تبرر وحتى تقتضى حماية الآثار المصرية العتيقة يعثر الإدريسى على الصحابة وهم ، كما يقول ابن عبد السلام المنوفى فى القرن السادس عشر فى رسالته عن النيل ، « أشد الناس حرصاً على إزالة المنكر » . فإن سلوك الصحابة أصبح نموذجاً لحياة كل مؤمن . ولكن هؤلاء الصحابة الذين أنعم الله عليهم بمصاحبة رسول الله واحتدائهم على سنته الكريمة لم يعترضوا على الإقامة بأرض الآثار الفرعونية وحتى دفعهم بظل الأهرام ، رموز مصر الوثنية . وأسمحوا لى أن أستشهد بعض الأسطر من كتاب الإدريسى التى تلخص هذه النظرية الإسلامية المتساهلة تجاه التراث المعمارى الفرعونى (ص ٤٥ — ٤٦) .

« وأذكر فيما أذكر من أخبار الزمان ، وحديث حوادث الحدثان . أننى أجتزت مع أبى رحمه الله ببرابى الأقصر البحرية ، متوجهين نحو شامة وطامة من

النواحي القبلية . ويد التخريب لم يأت بعد من تلك البرابى على ما أبقتة الليالى والأيام من رسومها ، ولم تمح من ألواح جدرانها خطوط رقومها . وهى من أكبر البرابى ساحةً وأوسعها ، وأعلاها جدراناً وأرفعها ، فما راعنى بها غير إحوال حجارها تحت معاول الحجارين ، وقد كادت صورها المهولة لهول ما نزل بها تبدى لنا الحنين والأنين . فقال : أنظر يابنى لما بنته الفراعنة ، كيف تهده الصفاعنة . وما آسى ولا آسف إلا على فساد ما ينقله المستبصرون عنها ويعتبر به المعتبرون منها . ولو كان لى من الأمر شىء ، ما مكنت هؤلاء الجهلة من خرابها . وأى حكمة تذهب من الأرض بذهابها ! ولقد وطئت خيل الصحابة رضى الله عنهم — لما توجهوا إلى غزو النوبة بعد فتح مصر — هذه الأرض ، وجالت فى هذه البلاد ، ورأت أعين القوم هذه الأبنية ، وما وامتدت أيديهم لها بالفساد ، بل تركوها عبرة لمعتبر مستبصر ، وتذكرة لخبير مستخبر » . ويمكن أن نضيف هنا أن بعض المؤلفين يدعون أن ليس فلسطين فقط بل أيضاً مصر كانت قد سميت بالأرض المقدسة ، لكونها ملجأً للأنبياء مثل يوسف والمسيح .

فى الواقع يصعب علينا اليوم أن نستعيد رد فعل المجتمع المصرى الإسلامى ، إن كان مؤيداً أم معارضاً بالنسبة للحل الوسط الذى أقترحه الإدريسى باستناده على موقف الصحابة تلقاء التراث المصرى القديم . ومثل هذا الحل الوسط السديد لم يكتب له النجاح والاستتباب إلا بعد الحصول على المعلومات والاكتشافات الحديثة فى عهد المصرييات فى القرنين التاسع عشر والعشرين . فها هو رافع رفاعة بدوى الطهطاوى ، المصلح المصرى المشهور ، يضع فى مختصره للتاريخ الفرعونى اقتباسات من القرآن الكريم وقصص الأنبياء عن الفراعنة جنباً إلى جنب مع ترجمات عن الفرنسية لكتب متخصصة حديثة بقلم علماء المصرييات دون أن يربط بينهما .

وعندما أحتد النقاش فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بخصوص توافق هاتين الخلفيتين المتناقضتين للتاريخ الفرعونى ، أى الخلفية

الإسلامية والخلفية الواردة من علماء المصريين الجدد كانت العلمانية قد قطعت شوطاً لا بأس به . وبدا وكأن حقيقة فرعون موسى الشرير التاريخية لم تعد مهمة إلى درجة جدية بإرهاق العقول في التفكير فيها . فلقد ترك المجال واسعاً رحباً أمام العلوم الحديثة ، أى علم الآثار وعلم المصريين . والاكتشافات التي ولدتها هذه العلوم — وهاهنا أكتفى بذكر العثور على قبر توت غنخ آمون — أعادت إلى مصر الشعور واليقين بعمقها التاريخي المتأصل التليد . وهذه المعرفة بأقدمية مصر الثقافية ظهرت معينة ومريحة في صراع مصر اليؤوس ضد الاحتلال الأوروبي ، وبالتالي ضيع التساؤل الممض عن حقيقة صورة مصر (كما تنشأ في المصادر الإسلامية) أهميتها الملحة .

الياسا

دراسة نقدية تحليلية واستنتاجية لبعض نصوصها
للدكتور/سعد بن محمد حذيفة الغامدى